مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 17 / العـدد 01 / مارس 2023 / ص ص 50 - 62
Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

سؤال المنهج في الفلسفة بين الوحدة والتعدد

Curriculum question in philosophy between unity and pluralism

الشريف زروخي
جامعة سطيف 2 (الجزائر) ، cherifz@outlook.fr

تاريخ الاستلام: 2021/06/02 تاريخ القبول: 2022/10/01 تاريخ النشر: 2023/03/31

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى محاولة نزع اللبس والغموض الذي يكتنف سؤال المنهج في الفلسفة وتتبع مساراته في التاريخ وكيف تعامل معه الفلاسفة، بداية من الفلسفة اليونانية مرورا بالفلسفة الحديثة والمعاصرة، من خلال بعض النماذج التي اشتغلت على هذا السؤال بين التأسيس لوحدة المنهج مع ديكارت وبيكون وهوسرل والدعوة لتعدد المناهج مع باشلار وبوبر، وبين الدعوة إلى تأسيس منهج مركب في ظل تساند المناهج مع إدغار موران وبين التفكير ضد المنهج مع فيرابند.

كل هذه النماذج التي استندنا عليها واستدعيناها عنيت بالمنهج تأسيسا ونقدا لنؤكد من خلالها أن ماهية الفلسفة ماهية اختلافية تعددية لهذا الحديث عن وحدة المنهج يتعارض وطبيعة التفكير الفلسفي وحد من حرية العقل في بحثه عن الحقيقة التي تبقى أفق كل تفكير، وحتى الفلاسفة الذين حاولوا تأسيس مناهج لم يلتزموا بها في بناء مذاهبهم وأنساقهم، وهذا لا يبرر الاستغناء عن المنهج، لأنَّ المنهج في الفلسفة في علاقة مع تجربة الفيلسوف الذاتية.

كلمات مفتاحية: المنهج، الفلسفة، المركب، النقد، ضد المنهج.

ABSTRACT:

The article aims to try to demystify the question of the curriculum in philosophy and trace its paths in history and how philosophers dealt with it, beginning with Greek philosophy through modern and contemporary philosophy, through some models that worked on this question between establishing the unity of the curriculum with Descartes, Bacon and Husserl and calling for a plurality of approaches. With Bashlar and Popper, and between the call to establish a composite curriculum in light of the curricula with Edgar Moran, and between thinking against the curriculum with Firappend

Keywords: Curriculum, philosophy, compound, criticism, against curriculum.

1- مقدمة:

إنَّ تطور العقل البشري في التاريخ بصورتيه العلمية والفلسفية كان مرهونا بسؤال المنهج؟ فكلما تمكن العقل من ضبط آليات المساءلة والتحليل والتفكيك والنقد والبناء والاستنتاج والاستدلال والبرهنة والمحاججة أثناء انتقاله من مقدمات إلى نتائج أو من النتائج إلى الأسس والمبادئ كلما كان بحثه بنائيا، وكلما انفلت من الضوابط أو فكر خارج المنهج أو ضده بلغة "بول فيرابند" كلما تقهقر وكان سببا في تعطيل حركية التاريخ، وقد انتبه إلى ضرورة المنهج فلاسفة اليونان منذ اللحظة السقراطية، فـ"سقراط" اعتمد على منهج الحوار في عملية إعادة بناء المفاهيم في أذهان الناس وتصحيحها، كما وظف "أفلاطون" المنهج الفرضي في عملية

- المؤلف المرسل: الشريف زروخي

doi: 10.34118/ssj.v17i1.3174
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/3174

ISSN: 1112 - 6752 رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 EISSN: 2602 - 6090

تأسيسه لنظرياته حول الدولة والأخلاق والمعرفة، وأرسطو هو الآخر أسس جملة من المناهج وكان أهمها البرهان والاستقراء والاستنتاج.

كما انتبه فلاسفة العصر الحديث لضرورة التفكير عبر المنهج فكتب الفرنسي"رونيه ديكارت" "خطاب في المنهج Discours de la méthode" محاولا وضع منهج يمكن العقل ويرشده لبلوغ الحقيقة لكنه منهج يختلف عن منهج "أرسطو"، وهو منهج حاكى فيه الرياضيات، ونجد الأنجليزي"فرانسيس بيكون" هو الآخر كتب خطاب في المنهج تحت عنوان "الأرغانون الجديد Novum organum كمنهج بديل عن المنهج الأرسطي، ولم يتمكن هؤلاء من صياغة منهج يكون محل اجماع الفلاسفة لأننا سنجد فيما بعد فلاسفة أعادوا طرح سؤال المنهج في الفلسفة أمثال كانط وهيغل وهوسرل وراسل وشلاير ماخر وديلتاي وهيدجر وغادمير وريكور وإدغار موران وفيرابند وبوانكريه وكارل بوبر وغيرهم كثير.

وفي ظل هذه المحاولات نتساءل هل يوجد منهج محدد للبحث الفلسفي يمكن للفيلسوف أن يستند عليه في عملية تأسيس نظرياته ورؤيته للوجود؟ مقارنة بالعلوم التجريبية والصورية(الرياضيات) التي تعتمد على منهج واضح المعالم؟ وإذا كان هناك شبه اجماع حول المناهج المعتمدة في فضاء العلوم الطبيعية والرياضية، فهل يمكن الحديث عن اجماع حول المنهج في الحقل الفلسفي؟ وتندرج تحت هذا الإشكال مشكلات جزئية يمكن صياغتها مالآتي:

- هل ظاهرة تعدد المناهج في الحقل التداولي الفلسفي تقتضيه طبيعة البحث الفلسفي؟
- هل هذا الاختلاف بين الفلاسفة حول المناهج يعد ظاهرة سلبية قد تعيق الأبحاث الفلسفية أم هو ضرورة منهجية تعبر عن غنى الفكر الفلسفي وانفتاحه؟

إن الأسئلة التي طرحناها تحيلنا إلى سؤال إمكانية أن تتحول الفلسفة إلى علم أو تصير علما دقيقا بلغة هوسرل؟

2- في المنهج والمنهجية والمناهج:

قبل الخوض في طبيعة الجدل بين الفلاسفة حول إمكانية التأسيس لمنهج فلسفي يكون محل اجماع من عدمه ينبغي منهجيا أن نبدأ بضبط المفاهيم كمدخل لدراستنا التي نهدف من ورائها إلى ازالة الغموض الذي يسكن سؤال المنهج في الفلسفة عبر تتبع مسار الإشكالية كرونولوجيا، ونقر مبدئيا بصعوبة السيطرة على الإشكال في هذه الدراسة لأن السؤال المطروح يحتاج إلى أبحاث ودراسات، وسنحاول التركزي على بعض الفلاسفة الذين كانت لهم مبادرات التأسيس المنهجي، والمعروف أن الفلاسفة لم يكتفوا بحدوسهم الذاتية وإنما سعوا إلى الاستدلال عليها والاقناع بها عبر مناهج مختلفة، فمثلا السفسطائيون اعتمدوا فن الخطابة كمنهج لتحصيل المعرفة لكن أفلاطون(427-347ق م) رفض منهج السوفسطائية في تحصيل المعرفة وقدم الحوار والجدل والأسطورة والأمثال كبديل منهجي وقام بتقسيم أدوات تحصيل المعرفة إلى أربعة أقسام وهي: العقل، الفهم، الاعتقاد، التخيل يقول:" نسمي القسم الأول باسم العلم، والقسم الثاني بالفهم، والثالث بالاعتقاد، والرابع بالتخيل ونطلق على المجموعتين الأخيرتين اسم الظن، وموضوعه عالم التحول، وعلى المجموعتين الأوليتين اسم العقل،وموضوعه الوجود.ولنضف إلى ذلك أن الوجود بالنسبة إلى التحول كالعقل بالنسبة إلى الظن، وأن العقل بالنسبة إلى الظن كالعلم بالنسبة إلي الاعتقاد، وكالفهم بالنسبة إلى التخيل" (أفلاطون، 1968: 247)

وقيل عن ديوجانس الكلبي (Diogène de Sinope) (نحو 421 - 323 ق م)الذي دحض حجج زينون الايلي(Zénon d'Élée) (490ق.م – 430 ق.م) في نفي الحركة، أنه قام ومشى ذهابا وإيابا وضرب تلميذه الذي اكتفى بدحض حجج الخصوم، وقال له لا ينبغي للمتعلم أن يتقبل الأسباب التي قبلها هو من غير أن يضيف إليها أسبابه الخاصة.(paul, 1979 :81) أي أن التفكير الفلسفي

هو تفكير منهجي في موضوعاته، ولا يكتفي الفيلسوف بتكرار المعارف وإنما يعمل على اضفاء رؤيته الشخصية عليها بكون الخطاب الفلسفي رؤية ذاتية مؤسسة على منطق الاختلاف كحق طبيعي.

أما في العصور الوسطى فقد كان المنهج السائد هو قراءة النصوص وتفسيرها واعتماد منطق المحاججة (راسل، 1983: 111) حيث يتم عرض القضية والدفاع عنها بحجج لإقناع الخصم، وبعد الحوار والمناظرة يقوم المعلم بجمع الأدلة وتصنيفها حسب الاثبات أو النفي ثم يحدد الحل.(GILSON, 1944, 398) وفي الفلسفة لا نعلم معارف كما قال كانطEmmanuel Kant (1724-1804) وبعده ياسبرس Karl Jaspers(1883-1969م) الذي يقول:"إنَّ السبب الكافي للاشتغال بتاريخ الفلسفة لا يمكن إلا أن يكون هو التفلسف أو التأمل الفلسفي نفسه. ولن يكون لهذا الاشتغال معنى إلا إذا انشغلنا بالأسئلة والأجوبة التي نلتقي بها في تاريخ الفلسفة. وإذا لم نفعل هذا فلن يخرج الأمر عن تحصيل معلومات عقيمة، معلومات خارجية عن واقع مضى ولم يعد يعنينا في شيء" (ياسبرس، 2007: 76).إنما الهدف هو انتاج مسار فكري يصل بالمتلقي إلى ما تريد الفلسفة معالجته (Jaspers, 1966:212) من هنا فتعليم الفلسفة يتأسس على تباين طرق التفلسف وإلا صارت مجرد تلقين لأفكار، ومن أراد تعلم التفلسف فعليه النظر في جميع المذاهب الفلسفية كونها تشكل تاريخ استعمال العقل، وقد قال كانط:"لا ينبغي أن يتعلم الطالب أفكارا وإنما كيف يفكر(Jaspers K. , 1963 :222) إذا كانت الغاية هو تعلم طرق التفكير الفلسفي فهذا يعني أننا أمام جملة من المناهج، لكن مالمقصود بالمنهج؟

2-1- في دلالة المنهج لغة:

المنهج ترجمة للكلمة méthode الفرنسية وما يقابلها في اللغات الأوروبية الأخرى. ومن اللاتينية Méthodus وكلها تعود في النهاية إلى الكلمة اليونانية Méthodos، وهي كلمة يستعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما نجدها كذلك عند أرسطو أحيانا كثيرة بمعنى " بحث ". والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج الذي يعتمده العقل في بحثه عن حقيقة الموضوعات التي يبحثها.

2-2- اصطلاحا:

لا يختلف المصطلح عن دلالته اللغوية كثيرا لأنه يفيد القواعد التي يستند عليها الدارس في مقاربة موضوعاته، ويساعدنا على تذليل الصعوبات في بحثنا، لكن المصطلح لم يأخذ معناه الحالي، أي بمعنى أنه مجموعة من القواعد العامة المقترحة الملزمة للعقل البحثي من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم، إلا ابتداء من العصر الحديث وعصر النهضة الأوروبية، ففي هذه اللحظة التاريخية اتجهت الأبحاث المنطقية إلى الاهتمام بمسألة المنهج، باعتباره جزء من أجزاء المنطق.(Bernard, 1865) وكانت محاولة الفرنسي راموس Ramus (سنة 1515 – 1572) من أهم محاولات التأسيس للمنهج من خلال تقسيمه المنطق إلى أربعة مباحث: التصور، الحكم، البرهان، المنهج. وقد طالب الدارسين بضرورة دراسة المنهج ضمن مباحث الأدب، لكنه لم يهتم بتحديد منهج دقيق للعلوم، بل اشتغل بالمنهج في البلاغة والأدب، شأنه شأن رجال عصر النهضة، ولم يهتم بالتنظير للمنهج، إلاَّ أنه يعد من بين الذين نبهوا الباحثين إلى ضرورة تأسيس مناهج. فكان لأفكاره تأثير كبير في رؤية ديكارت المنهجية.

وفي القرن السابع عشر، بدأ التفكير في تأسيس مناهج بديلة عن المنهج الأرسطي، لأنه لم يمكن الإنسان من فهم الطبيعة والقوانين المتحكمة فيها، وكانت البداية مع الأنجليزي فرانسيس بيكون في كتابه " الأورغانون الجديد " Novum Organum (سنة 1620) فيه صاغ قواعد المنهج التجريبي بكل وضوح. ثم يأتي ديكارت وحاول التأسيس لمنهج بديل يكون صالح لكل العلوم، منهج يمكن أن يوجه العقل توجها سليما في عملية البحث وهذا ما يدل عليه عنوان كتابه" مقال في المنهجdiscours de la méthode " (سنة 1637)، وتعمقت الدراسات حول المنهج مع جماعة بور رويال 1662م، وهي جماعة عملت على ضبط دلالة المنهج بكل

وضوح، معتبرة المنهج:" فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للأخرين، حين نكون بها عارفين ". فثمة إذن نوعان من المنهج: أحدهما للكشف عن الحقيقة، ويسمى التحليل أو منهج الحل، ويمكن أن يدعى أيضا منهج الاختراع، والأخر وهو الخاص بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها، يسمى بالتركيب أو منهج التأليف، ويمكن أن ندعوه أيضاً منهج المذهب"(شارل،1868: 365) ويمكن أن نورد بعض التعريفات لمصطلح المنهج نؤكد من خلالها على محاولة التأسيس لمناهج بديلة عن المنهج الأرسطي:

- تعريف فرنسيس بيكون في كتابه: " الارغانون الجديد Novum Organum 1620"وضع فيه قواعد المنهج التجريبي كبديل للمنهج الارسطي (القياس)، معتمدا الاستقراء ثم اضيف له الاستنباط الرياضي يقول:"إن منهجي...سهل في الشرح، منهجي هو...أن نستمر في الأخذ بشهادة الحواس...أن نفتح مسارا جديدا للعقل أكثر وثوقا، يبدأ مباشرة من الادراكات الحقيقية الأولى للحواس نفسها...لقد أصبح العقل محشوا بمذاهب فاسدة وأوهام فارغة، إن فن المنطق يسهم...في تثبيت الأخطاء لا في كشف الحقيقة"(بيكون،2017: 09) ولم يقصد بيكون التنكر لجهود القدامى وإنما حاول الانطلاق من النتائج المتوصل إليها والوقوف على سلبياتها عبر النقد ليكشف لنا مدى قصور المنهج في صورته الأرسطية وعدم قدرته على تمكين العقل من فهم الطبيعة المادية، فحاول تقديم منهج يستند على التجربة الحسية كمعيار نعود إليه للتأكد من أحكامنا.

- تعريف ديكارت: "قواعد لتوجيه الفكر" يقول:"المنهج ضروري للبحث عن الحقيقة...وأعني بالمنهج جملة قواعد يقينية تعصم كل من يراعيها بصرامة. من حمل الخطأ محمل الصواب"(رونيه،114:2001) يتحدث ديكارت في هذا النص عن المنهج بكونه جملة القواعد الضابطة للعقل البحثي وهي قواعد ملزمة إذا التزم بها العقل تمكن من بلوغ حقيقة موضوعه والكشف عنها، والمنهج الديكارتي هو منهج يصلح لكل العلوم بما في ذلك الفلسفة.

- برتراند راسل: يقول:"إن منهجي على الدوام هو أني أبدأ بشيء غامض ولكنه محير، شيء يبدو عرضة للشك إلا أنني لا أستطيع التعبير عنه بشكل دقيق، فأقوم بعملية تشبه عملية رؤية شيء معين بالعين المجردة أولا ثم أفحصه بعد ذلك باستعمال المجهر" (مهران،318:1977) وهكذا صار العلم يمر بثلاث مراحل حسب برتراند راسل وهي:

أ- ملاحظة الوقائع الحسية.

ب- وضع فروض تفسيرية ومؤقتة.

ج- استنباط نتائج يمكن اختبارها.

والباحث يعتمد في نظر راسل طريقة الاستقراء إذا انتقل من وقائع حسية جزئية إلى مبادئ عامة كلية، أما إذا انتقل من الكليات إلى الجزئيات فيعتمد طريقة الاستنباط والتحليل والتركيب، وبهذه الكيفية يمكن للعقل أن يسيطر على الطبيعة، لكن راسل يفرق بين العلم والفلسفة، فإذا كان دور العلم يكمن في محاولة السيطرة على الطبيعة بالكشف عن القوانين المتحكمة فيها، فإن دور الفلسفة يكمن في اشتغالها على الخطاب العلمي بالتحليل والنقد، حيث تتناول الفلسفة الخطاب العلمي وتنظر في مدى تماسكه داخليا وفي طبيعة اللغة المستعملة، وهكذا يتحول الخطاب العلمي المنجز موضوعا للدراسات الفلسفية، ويلتقي هذا التصور والتعريف الذي ورد في المعجم الفلسفي من اعداد رونز".Runes, Dictionary of philosophy"عندما يعرف المنهج بكونه"عملية تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي، أو ما تؤلفه بنية العلوم الخاصة(Dagobert., 1996:196)

- يقول عبد الرحمان بدوي:"إنَّ المعرفة الواعية بمناهج البحث العلمي تمكن العلماء الباحثين من إتقان البحث وتلافي الكثير من الخطوات المتعثرة أو التي لا تفيد شيئا"(بدوي،1977:07) كل التعاريف التي أوردناها تتفق على اعتبار المنهج جملة من القواعد الناظمة للعقل في عملية البحث عن الحقيقة. لكن ما المقصود بعلم المناهج؟

3-2- علم المناهج: Méthodologie

ينبغي الاشارة إلى أنَّ هناك تداخل بين علم المناهج والابستيمولوجيا وفلسفة العلوم، فلالاند مثلا لا يميز بين الابستيمولوجيا وفلسفة العلوم، لأن الابستيمولوجيا كما يقول الجابري من حيث الاشتقاق هي Epistémologie لفظ صيغ من كلمتين يونانيتين Epstémé ومعناها: علم، و logos ومن معانيها: علم، نقد، نظرية، دراسة، لتصبح الابستيمولوجيا من ناحية الاشتقاق اللغوي هي "علم العلوم" أو "الدراسة النقدية للعلوم"، وهذا هو تقريبا معناها الاصطلاحي، يقول لالاند في معجمه الفلسفي:" الابستيمولوجيا هي فلسفة العلوم...ولكن بمعنى خصوصية، فهي ليست، بالضبط، دراسة المناهج العلمية، هذه الدراسة التي هي موضوع الميتودولوجيا والتي تشكل جزءا من المنطق، وليست كذلك تركيبا أو استباقا للقوانين العلمية (على غرار مايفعل المذهب الوضعي أو المذهب التطوري)، وإنما هي أساسا الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم، ولفروضها ونتائجها، بقصد تحديد أصلها المنطقي (لا السيكولوجي) وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية"(الجابري،2002:18)

ونلاحظ في هذا النص أن لالاند يحاول التمييز بين الابستيمولوجيا والميتودولوجيا وفلسفة العلوم من ناحية عامة، لكنه لا يستدعي مفهوم نظرية المعرفة Théorie de la connaissance لأنها تختلف تماما عن الابستيمولوجيا خاصة في الفضاء التداولي الفرنسي، والحرص على التمييز يعني أنَّ هناك إمكانية الخلط بين هذه الحقول وتداخلها، ويرى الجابري أنَّ لالاند قد كان ضحية الخلط بين الميتودولوجيا والمنطق، وهذا مسايرة للتقليد الفرنسي الذي كان يميز بين نوعين من المنطق: المنطق العام(الصوري) الذي يهتم بصورة المعرفة دون مادتها، والمنطق المادي (التطبيقي) الذي يهتم بدراسة المناهج وهذا ما كان سائدا في الحقل التداولي الفرنسي في نظر روبير بلانشي(Blanché, 1972 :18)

لكن اليوم استقلت الميتودولوجيا وصارت علما قائما بنفسه (علم المناهج)، إلاَّ أنَّ الابستيمولوجيا لم تتمكن من الاستقلال نهائيا عن مباحث الميتودولوجيا فهي لا تزال تتناول بعض القضايا التي تنتمي إلى حقل الميتودولوجيا والمنطق وفلسفة العلوم ونظرية المعرفة، وتبقى غاية كل هذه العلوم هو محاولة الوقوف على طبيعة المعرفة البشرية وشروطها وقيمتها وحدودها، أما في التقليد الانجليزي فهناك خلط بين هذه المباحث في حين العقل في الحقل التداولي الألماني يميز بين الابستيمولوجيا ونظرية المعرفة ويستعملها بمعنى فلسفة العلوم، هذا ما دفع بالجابري يدعو إلى ضرورة التمييز بين موضوعات كل علم لضرورة منهجية.

والميتودولجيا من الكلمة اليونانية Méthodos وتعني الطريق والمنهاج المؤدي إلى الحقيقة، و"هي علم المناهج والمقصود هنا: مناهج العلوم. والمنهج العلمي هو جملة العمليات العقلية، والخطوات العملية، التي يقوم بها العالم، من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها"(الجابري2002:23) وطالما أننا أمام مجموعة من الموضوعات فإننا كذلك أمام مجموعة من المناهج، لأن لكل علم منهجه حسب طبيعة موضوعه، والميتودولوجيا تأتي في المرحلة الثانية أي ما بعد البحث العلمي وليس قبله، والميتودولوجي المختص في المناهج سواء كان فيلسوفا أو عالما ليست وظيفته رسم مسار بحث العالم أو الفيلسوف وإنما دوره محاولة تتبع عملية البحث من بدايتها إلى نهايته أي من مرحلة التفكير إلى مرحلة العمل والتطبيق عبر الوصف والتحليل والنقد، وهذه العملية تساعد الباحث على وعي مسار بحثه وتطويره.

ويصل الجابري إلى القول:"إذا كانت الابستيمولوجيا تتناول بالدرس والنقد مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها وحصيلتها الموضوعية-كما يقول لالاند- فإن الميتودولوجيا تقتصر، في الغالب على دراسة المناهج العلمية، دراسة وصفية تحليلية، لبيان

مراحل عملية الكشف العلمي، وطبيعة العلاقة التي تقوم بين الفكر والواقع خلال هذه العملية، هناك إذن فرق بينهما في مستوى التحليل: إن مستوى التحليل في الميتودولوجيا، علاوة على كونها تتناول كل علم على حدة، مقصور في الغالب على الدراسة الوصفية، في حين أن الابستيمولوجيا، فضلا عن طموحها إلى أن تكون نظرية عامة في العلوم، ترتفع إلى مستوى أعلى من التحليل، مستوى البحث النقدي الرامي إلى استخلاص الفلسفة التي ينطوي عليها، ضمنيا، التفكير العلمي...الابستيمولوجيا هي ميتودولوجيا من الدرجة الثانية"(الجابري،23،2002-24) والبعض يعود بالميتودولوجيا إلى الفيلسوف الالماني كانط، لأنه بتقسيمه للمنطق إلى قسمين:

1- القسم الأول يتناول شروط المعرفة الصحيحة.

2- القسم الثاني يحدد الشكل العام والشروط الضرورية لتكون العلوم.

والقسم الثاني هو ما يعرف بعلم المناهج كفرع من علم المنطق، الذي ينظر في مبادئ وقواعد العلم، وعلم المناهج ينظر في النقاط التالية: تحديد موضوع كل علم، تطور العلوم في التاريخ، تحديد طبيعة القضايا التي يتضمنها كل علم، الأسس الفلسفية التي يقوم عليها كل علم، علاقة كل علم بباقي العلوم.

وبعد التطرق لدلالة المنهج في المستوى اللغوي والاصطلاحي نقول أن المنهج هو خطة أو رؤية يضعها الفيلسوف أو العالم ويلتزم بها بهدف الوصول إلى نتيجة معينة، أو هو الطريق المؤدي إلى بلوغ الحقيقة، باعتباره مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم إدراك الحقيقة، مع إمكانية بيانها والتأكد من صحتها. وللمنهج مستوى نظري هدفه الوصول إلى الحقيقة، ومستوى عملي يتحدد باعتباره مجموعة الطرق التي نريد الوصول بواسطتها إلى نتيجة عملية معينة. وإذا كانت العلوم التجريبية تقوم على منهج يتكون من الملاحظة والفرضية والتجربة، وهو منهج ينسجم مع موضوع الدراسة الذي يتألف من عناصر مادية، وبما أن مواضيع الفلسفة هي في الأغلب ليست مادية فانه كان من الضروري ظهور منهج ينسجم مع موضوع الدراسة فيها، وعندما حاول الفلاسفة وضع هذا المنهج تبين لهم أنهم أمام مناهج وليس منهجا واحدا، ومن هذه المناهج الحدس والتمثيل، ومنهج الشك والمنهج الظواهري والتحليلي والبنيوي والمنهج الفيلولوجي. لكن هل يمكن الحديث عن منهج مركب يجمع بين كل المناهج

3- محاولات في التأسيس المنهجي:

3-1- في بنية المنهج الديكارت

إن الاجابة على الإشكاليات التي أثرناها مرتبطة في اعتقادنا بفهمنا لمعنى الفلسفة وللدلالة التي نعطيها للمصطلح كما هي مرتبطة بنظرتنا لطبيعة الفكر الفلسفي، فمثلا ديكارت(René Descarts) [1596-1650]، أب الفلسفة الحديثة اشتغل على الكثير من الأسئلة، منها سؤال المعرفة كيف أعرف؟ وجعله أساس فلسفته، وكان جوابه في كتابه "مقالة الطريقة " [1637- discourse de la method و"تأملات ميتافيزيقية " (Meditations métaphysique-1641) فيهما وضع قواعد المنهج العقلاني، الذي أصبح فيما بعد سبيل الكثيرين، من أمثال "مالبرانش" (Malebranche -1715-1638) بفرنسا و"باروخ سبينوزا (1972- Barueh Spinoza 1777) بهولندا، و"ليبنيتز" (Leibniz 1716-1646) بألمانيا.

وكان هدف ديكارت هو:"نقل المعرفة وموضوعاتها من الكونيات الإلهية إلى الفيزياء، ومن نظام العلل الأولى إلى أنظمة الميكانيكا...والتخلي عن النظر بعين الله إلى العالم" (كامل،196،2002). ويعتبر موقف ديكارت بمثابة المنعطف الحقيقي لأنه أكد على أنَّ اللاهوت لا يمكننا من فهم ما يجري في العالم الطبيعي، وأن الإشكال منهجي بالدرجة الأولى، أما قضايا اللاهوت فهي خارج مجال المعرفة العلمية، وهذا تحت تأثير غاليلي، الذي رأى في اللاهوت الكنسي تقييدا لحرية العقل، لأنه يحدثنا عن كيفية الاتجاه إلى السماء، ولا يحدثنا عن كيفية العيش في الأرض.

و"ديكارت" بتأسيسية للمنهج العقلاني ملأ عصره، لأنه استطاع بجرأة أن يتحرر من قيود ورواسب تراكمت لعدة قرون حتى شلت حركة العقل وجعلت منه أداة في يد الكنيسة، كما تحرر من بواعث التجربة الحسية الأرسطية، ومن ثم أمكن "لديكارت" محاكمة الآراء المضللة التي تعيق حركة الفكر والعقل في قراءة الواقع قراءة عقلانية(تورين،1977:71) ورفض كل معرفة من خارج العقل.

وأطلق ديكارت مصطلح الفلسفة على مجموع العلوم مشبها الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا وساقها علم الطبيعة والأغصان سائر العلوم من (طب، ميكانيكا، علم الاخلاق)، ونحن ننطلق من اعتبار مفهوم الفلسفة كباقي المفاهيم هي كائنات تاريخية لها سيرورتها وصيرورتها الخاصة ولا يمكن أن تستقر على دلالة محددة، لهذا نؤكد على أن الفلسفة غير العلم، لأن العلم يقوم على أسس واضحة وهي: الموضوع والمنهج، فالموضوع محدد لأنه يتعلق بالعالم الامبريقي في صورته المادية الحسية الماثل أمامنا، كما أن المنهج واضح ومحدد المراحل وهو محل اتفاق، والتزام العلماء الصرامة المنهجية يؤدي إلى نتائج جد دقيقة.

من هذا المنطلق فإنه عندما نحاول الحديث عن إمكانية وجود موضوع محدد للفلسفة وعن منهج واضح وعن نتائج دقيقة وملموسة نجد أنفسنا نقارن الخطاب الفلسفي بالخطاب العلمي، جاعلين من العلم في مستواه المنهجي ونتائجه بمثابة البراديغم paradigme الذي نقيس به كل محاولة تهدف إلى تأسيس منهجي أو علمي للفلسفة، ويصبح التساؤل حول طبيعة المنهج الفلسفي وإمكانية تحول الفلسفة إلى علم سؤال فلسفي بامتياز، وهو سؤال أثاره العديد من الفلاسفة واشتغلوا عليه بكل جدية، ويعد ديكارت من أشهر الفلاسفة الذين عنوا بمسألة المنهج الفلسفي، ومنهج ديكارت يمكن أن يكون صالح لكل العلوم إذا أرادت فهم موضوعاتها بما في ذلك الفلسفة، لأن ديكارت يجعل من الفلسفة بمثابة العلم الكلي وباقي العلوم ما هي إلا فروع تابعة لها، وعليه فديكارت يؤسس لوحدة المنهج على قاعدة وحدة المعرفة.

وينبغي أن ننتبه إلى أن الفلاسفة في عملية تعرضهم لسؤال المنهج انطلقوا من خلفيات سواء اتعلق الأمر بطرح السؤال أو بالإجابة عنه. فديكارت مثلا اعتقد أن سبب اختلاف النتائج التي يصل إليها الفلاسفة حول مشكلة محددة ومتعينة تعود إلى مشكلة المنهج، لذلك اقترح علينا كما رأينا منهجا لتجاوز هذا الإشكال، ولم يعتمد المفهوم الكلاسيكي أو الأرسطي الذي عده ديكارت مجرد تكرار وتحصيل حاصل وأنه منهج غير منتج لا يضيف إلى معارفنا شيء جديد.

ولكن ما يميز المنهج العقلاني الديكارتي في نظر طه عبد الرحمان هو:"أن العقلانية الديكارتية عرضت على ديكارت نفسه في خطاب لا تنطبق عليه إلا معايير الاستدلال الحجاجي والبيان اللغوي، فكان الأولى أن يقدم الحجاج والبيان على البرهان الذي تدعي هذه العقلانية التزامه"(الرحمان،1988:132) يعتقد طه عبد الرحمان أن العقلانية الديكارتية ساهمت وساعدت في ظهور الكثير من النزعات الحجاجية، وقد كان لهذا التصور تأثير كبير وواضح على رؤية كانط الذي عمل على تأسيس نسق فلسفي مميزا بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، بحكم أن العقل يستطيع أن يتدخل في العالم ويعيد تنظيمه حسب مقولاته، كما يستطيع العقل الفصل بين الوجود الإنساني والوجود المادي (العالم) عبر ملكة الفهم التي تضفي على الوجود المعنى، والاستدلالات العقلية لا تخرج عن دائرة الاعتقاد المبني على الإقناع، وكان ديكارت يتمنى أن يحصل اجماع بين الفلاسفة حول منهجه.

2-3- ايمانويل كانط والتأسيس المنهجي:

انطلق كانط من تقييم المنهج الديكارتي معتقدا أن المنهج الذي اقترحه ديكارت لا يمثل فصل الخطاب ورأى أن الفلسفة لا تزال تعاني من إشكالية المنهج وإشكالية الموضوع معا، لذلك اعتمد كانط ما يسمى بالحجاج المتعالي في عملية بناء نسق استدلالي، إلا أن كانط لم يرفض المنطق الأرسطي بكونه في رأيه ولد مكتملا، ووظيفة المنطق في نظره تكمن في تنسيق القوانين. وهذا ما يجعل من المنهج الكانطي بحث في إمكان المعرفة عبر البحث في الشروط القبلية التي تجعل من معارفنا ممكنة ومقبولة، وشروط المعرفة

الكانطية هي عبارة عن استعدادات موجودة على مستوى الوعي التي تساعده على تلقي المعرفة وتنظيمها وفهمها بالاستناد على مقولات قبلية، لهذا يمكن القول أن المعرفة الكانطية هي معرفة أو ظواهر موجودة على مستوى الوعي، مما يجعل البحث هو بحث في إمكانية المعرفة على مستوى الوعي.

والكيفية التي اعتمدها كانط لا تختلف عن الطريقة التي اعتمدها هوسرل.

3-3- هوسرل والمنهج البديل:

يعرف منهج هوسرل Edmund Husserl بالمنهج الفينومينولوجي وهو منهج يهتم بدراسة الخبرة المكونة حول الأشياء على مستوى الوعي، أي دراسة الأشياء المحايثة للوعي، لذلك يلتقي هوسرل مع كانط في أن كليهما يسعى إلى بحث في المعرفة بكونها خبرة للوعي، رغم أن كانط لم يستعمل مصطلح الفينومينولوجيا في "نقد العقل الخالص" لكنه وظفه في كتابه"المبادئ الميتافيزيقية الأولى للعلم الطبيعي".

كما أن كانط لم يتعامل مع منهجه بكونه فينومينولوجي وإنما بكونه ترستندالي، لأنه يتجاوز معطيات التجربة وخبراتها إلى البحث في طبيعة المعرفة وأصولها انطلاقا من الشروط القبلية التي تجعلها ممكنة، كما ينبغي الاشارة إلى أن مصطلح الوعي وظفه هوسرل أكثر في حين كانط كان يوظف مصطلحات مختلفة مثل: الفهم، الحس، المخيلة بكونها ملكات للوعي، وهوسرل رأى أن مشكلة الفلسفة لا تتعلق بالموضوع وإنما بالمنهج، فحاول وضع منهج يعتقد أنه الأقدر على جعل الفلسفة علما صارما، وهو الفينومينولوجيا، منهج يقوم على ضرورة التخلي عن كل المعتقدات والأفكار السابقة وعن كل أيديولوجيا تعيق العمل للوصول إلى نتائج موضوعية. والفينومينولوجيا هي بمثابة القطيعة الابستيمولوجية مع المناهج التي كانت سائدة ومسيطرة في القرن التاسع عشر على التفكير والرؤيا، وعبر الفينومينولوجيا يمكن التعامل مع المشكلات الكبرى للإنسان وإنتاج خطاب فلسفي قادر على استيعاب الواقع ورهاناته (j-Glaude 1987:33)

والفينومينولوجيا تدعي الصرامة العلمية عندما تتعامل مع الظاهرة كمعطى وتقوم بوصفها وتحليلها(Husserl, 1967 14) لكنها لا تهتم بالنتائج شأن العلم لأنها تنصرف إلى الماهية(Henri,1970 :130) هذا التصور اعترض عليه برتراند راسل الأنجليزي رغم عدم رفضه للمنهج في صورته الفينومينولوجية لكنه اعتقد أنه من الصعوبة التخلص من المعتقدات والأفكار السابقة، في حين المنهج الظاهراتي يتأسس أولا على مبدأ تعليق الأحكام(الإيبوخية) لهذا حاول أن يقدم منهجا بديلا يمكنه أن يرتق بالخطاب الفلسفي إلى مستوى الخطاب العلمي، وذلك عبر تقسيم المشكلات الفلسفية المعقدة إلى أجزاء والعمل على تناول كل مشكلة على حدى، وهذا المنهج ينبغي أن يستند إلى معطيات المنطق والعلوم والرياضيات، لكن لم يتم الاجماع على منهج راسل من قبل الفلاسفة.

وما يمكن استنتاجه هو أن كل محاولات علمنة الخطاب الفلسفي عبر تأسيس منهج واحد لم تفلح، لأن الفلاسفة لم يتفقوا حول منهج معين وحتى الفلاسفة الذين أعلنوا عن مناهجهم لم يلتزموا بمنهج واحد، ويعود السبب إلى طبيعة التفكير الفلسفي والموضوعات التي يشتغل عليها، لهذا أتى بعض الفلاسفة بعد ديكارت وكانط وهوسرل وكارل بوبر وباشلار وريكور وحاولوا تقديم حلول لسؤال المنهج، ومن بين المبادرين المفكر الفرنسي إدغار موران الذي اقترح ما يسميه بالمنهج المركب كمخرج لكل الأزمات وفي المقابل نجد فيرابند يرفض فكرة تأسيس مناهج من الأصل ويدعو إلى التفكير خارج المنهج أو ضد المنهج، فهل يمكن للفلسفة أن تجد حلا لسؤال المنهج من خلال أطروحة موران أو أطروحة فيرابند؟

4- الفلسفة بين المنهج المركب واللامنهج

تعرف الفلسفة بتعدد وتنوع مناهجها ومذاهبها وتياراتها، فكل فيلسوف يعلن عن منهجه على أنه المنهج الصحيح والأنسب للتفكير الفلسفي، والفلاسفة لم يكتفوا بمنهج واحد وإنما وظفوا مجموعة من المناهج، فهل يمكن الحديث عن منهج مركب يجمع بين كل المناهج؟

4-1- المنهج المركب عند إدغار موران

رغم ظاهرة تعدد المناهج إلا أنَّ إدغار موران Edgar Morin حاول بناء مشروع فلسفي على أساس المنهج المركب والفكر المعقد، وقد صاغ مشروعه الفكري في كتابه المنهج(Méthode) بأجزائه الستة، وكان الهدف الأساسي من كتاب المنهج هو مساءلة المعرفة في معناها وطبيعتها وحدودها وعلاقاتها مع الواقع ومع الحقيقة وفي علاقة المعارف ببعضها ومحاولة الربط بينها استنادا إلى رؤية عبر مناهجية مركبة يقول:"يجب أن نعرف المعرفة إذا أردنا أن نعرف مصادر أخطائنا وأوهامنا" (موران،2012: 44) المنهج الذي يقترحه موران هو محاولة لتجاوز الجدل الذي حدث بين الفلاسفة منذ القدم حول إمكانية تأسيس منهج واحد يكون ملزم لكل الفلاسفة، ونجده يقول عن قيمة كتاب المنهج ما يلي:"إنَّ المنهج هو بمثابة إستراتيجية تهدف إلى المساعدة على التفكير الذاتي لمجابهة التعقيد.كما ويهدف المنهج الوصول إلى فكر غير إقصائي لأجل توصيل المعارف المشت(27-28: Morin, 1986)أما بخصوص مشروعه الفلسفي يقول إدغار موران: "إني أجدءلزاما علي أن أكافح ضد التشتت، غير أني أصر على تعدد اهتماماتي وخبراتي... وإذا كان علي أنَّ اعرف اهتماماتي فإني في الحقيقة أقوم على جمع المشتت والمبعثر، وأود لو أن هناك ثمرة للجمع بين الملموس وبين المجرد، وبين علم الاجتماع وعلوم الحياة مثلا. كما أود ألاَّ يكون ذلك مجرد إثراء للمعرفة، بل لمبدأ المعرفة ذاته، أقصد المنهج، إن كتابي عن المنهج هو ثمرة هذا الاتجاه" (جعفر،1988:225)

ومنهج مورغان في الأصل هو منهج ضد المنهج الديكارتي أو ضد المنهج التبسيطي والاختزالي وكان يهدف إلى:"تبديد التعقيد الظاهر للظواهر من أجل الكشف عن النظام البسيط الذي تخضع له" (موران ،2012: 19) وإذا كان الواقع في نظر موران محكوم بالتعقيد والتنوع والتركيب فإنه يقتضي منهجا مركبا يتماشى وطبيعته للإحاطة بكل عناصره، أما المناهج الكلاسيكية فتركز على فعل التجزئة وهذا يؤدي إلى سوء الفهم، يقول:" يؤدي مبدأ الاختزال إلى اختزال ما هو مركب في البسيط، بتطبيق المنطق الآلي والحتمي الخاص بالآلات الاصطناعية على المركبات الحية والإنسانية، ويقوم مبدأ الاختزال، على إقصاء كل ما لا يقبل التكميم والقيياس(Morin, 1999:19)) المناهج الكلاسيكية أو الاختزالية التي تركز على فعل التجزئة في نظر موران:"تشوه الوقائع أكثر مما تعبر عليها، ومن ثم فهي تنتج العمى أكثر من مساهمتها في التوضي(20: Morin,1999) وهذا التصور لطبيعة المنهج نجدها عند الفليلسوف الفرنسي بول ريكور هو الآخر دعى الفلاسفة إلى ضرورة تجاوز الصراع حول المنهج والذهاب إلى ما يسميه تساند المناهج بهدف فهم الظواهر المعقدة.

4-2- بول فير ابند ضد المنهج contre la méthode

تميز موقف فيرابند Paul Karl Feyerabend من المنهج مقارنة بباقي الفلاسفة بالجرأة في مجال فلسفة العلوم المعاصرة، لأنه تحول بالبحث من التساؤل عن المنهج الأصلح والأكثر فاعلية وموضوعية يمكن أن يستند عليه الفلاسفة إلى التشكيك في إمكانية وجود منهج واحد يمكن الالتزام بقواعدة في عملية فهم الظاهرة المعقدة والواقع المركب، ويرى فيرابند أنه لا توجد قواعد ثابتة وصارمة ولا منهج واحد يكون بمثابة براديغم يعتمده الباحث والفيلسوف، ورغم وجود نتائج ايجابية فهذا لا يبرر وجود منهج واحد نظرا لتعدد الحقيقة، لهذا ورغم ضرورة القواعد المرشدة للعقل فهذا لا يعني الالتزام بطريق واحد في عملية البحث لأن ذلك من شأنه يعرقل العقل ويحد من تطوره.

ويرى فيرابند أن تلك القواعد الميتودولوجية التي وضعها بعض الفلاسفة والعلماء ما هي إلا تعبير عن تصورات مذهبية لا تتوفر على الموضوعية، والالتزام بالقواعد يحد من خيال العقل الحر، يقول:"إن الفكرة القائلة بأن العلم يمكن له، وينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وكلية، هي فكرة ميثالية وذات بريق خادع، فهي مثالية لأنها تتضمن تصورا مفرطا في البساطة حول ما يملكه الإنسان من استعدادات وقدرات، وهي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل هذه القواعد لا تخلوا من جعل الزيادة في كفاءتنا المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا، فضلا عن أن هذه الفكرة مضرة بالعلم، لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، إنها تجعل مشروعنا العلمي أقل مرونة، وأكثر دوغمائية" (paul, 1979, 332)

إن الاعتقاد بوجود قواعد صارمة ينبغي اعتمادها كمنهج في عملية البحث عن الحقيقة سواء في العلم أو الفلسفة اعتقاد خاطئ في نظر فيرابند وهذا بدليل العودة إلى التاريخ، فالتاريخ يؤكد لنا أنه:"لا توجد قاعدة واحدة مهما كانت مؤسسة وراسخة في حقل الابستيمولوجيا، لم يتم انتهاكها ولو لمرة واحدة، وهذه الانتهاكات لقواعد المنهج، ليس حوادث عرضية، وليست ناتجة عن نقص في معارفنا، أو عن عدم وعي يمكن تداركه، بل هي على العكس ضرورية لتقدم العلم، إن الأحداث الهامة والتطورات العلمية الكبرى...لم تكن لترى النور لو لا أنَّ، بعض العلماء والمفكرين، قد قرروا أن لا يلتزموا بقواعد محددة وثابتة" (paul, 1979, 20)

إن تاريخ المناهج يكشف لنا عن عدم وجود منهج محدد وواحد في عملية الكشف عن الحقيقة وتحصيل المعرفة، فالمعرفة في السابق كانت مؤسسة على التأمل العقلي وعلى المنطق الصوري أو الأرسطي، ثم عمل أرسطو على تطوير المنهج فأدخل بعض التعديلات بإضافته للاستقراء التام والقياس والاستدلال بكل أنواعه، ثم يأتي بيكون ويعمل على نقد الاستقراء التام ويضع قواعد المنهج التجريبي القائم على الاستقراء الناقص، ونفس الأمر قام به كل من غاليلي وكبلر وديكارت وقاموا بترييض المنهج(الاستنباط)، هذا التنوع ضروري لتطور العقل العلمي والفلسفي (فيرباند، 2009، : 115) يدعو فيرابند إلى ضرورة الممارسة الحرة للمنهج بمعنى الاختلاف، لأن تنوع المناهج من شأنه أن يمككنا من اكتشاف نظريات علمية قد لا يتمكن منها العقل الملتزم بمنهج واحد، يقول:" إنَّ الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية" (فيرباند، 2009، : 116)

يعارض فيرابند كل الدراسات التي آمنت بوحدة المنهج أو دعت إلى تأسيس منهج واحد يكون محل اجماع الفلاسفة والعلماء، ونادى إلى فكرة اللامنهج أو ضد المنهج فلا توجد قواعد محددة مسبقا يمكن لها أن توجه العقل أو تتحكم في مساره البحثي، ففي بعض الأحيان يتم نفي المنطق كما هو شأن التجريبية المنطقية وشأن فلسفة بوبر الذي تعامل مع المعرفة بصفة عامة تعاملا حذرا، فنجده يرفض القول بالمطلقية ويرفض مقولة اليقين، التي تشكل عائق أمام مستقبل المعرفة الإنسانية عامة فلسفة كانت أو علم، يقول" علمنا ليس معرفة حقة: لا يمكن الادعاء أبدا انه وصل إلى الحقيقة ولا حتى إلى بدائلها مثل الاحتمال" (Popper, 1974, 50)

هذا القول فيه نقد للفلسفات الكلاسيكية التي ارتكزت على مقولات إذا فككناها وجدناها، اكبر عائق ابستيمولوجي أمام تطور العلم والفلسفة، ومن المقولات التي فكك بنيتها بوبر "المطلق" و"اليقين" و"الحتمية" و"الثبات"، ولم يستثن بوبر تيارا أو مدرسة سواء كانت عقلانية أو تجريبية، يقول" الاختلافات بين التجريبية الكلاسيكية والعقلانية هي اقل تشابهاتهما، وان كلتيهما مخطئتين رغم إنني شخصيا تجريبي وعقلاني إلى حد ما، لكنني اعتقد أن الملاحظة القوية والعقل لكل واحد منها دور هام يلعبه، هذه الأدوار قليلا ما تشبه الأدوار التي وصفها المدافعون عنها الكلاسيكيون وأكثر تخصيصا سأحاول أن أبين أن لا الملاحظة ولا العقل يمكن وصفهما كمصدر للمعرفة بالمعنى الذي يدعي به كمصدر للمعرفة في وقتنا الحاضر." (Popper, 1965, 50) والملاحظ حتى بوبر يرفض فكرة تقنين المنهج وجعله بمثابة البراديغم لصدق أو كذب النظرية، وكأنه يؤسس لفكرة اللامنهج لكن بطريقة

مختلفة عن طريقة فيرابند. لأنَّ اللامنهج هو دعوى إلى الفوضى في مقابل الالتزام ومقابل العقلانية الصارمة، فاللا منهج يعني عدم فرض طريقة معينة، لأن معايير البحث يتم تحديدها حسب طبيعة الموضوع المدروس وطبيعة الباحث وظروفه، لهذا فيرابند يرفض الميتودولوجيا القائمة على رؤية أديولوجية كلية لاتاريخية.

يرى فيرابند أن الوقائع العلمية والموضوعاتية وقائع معقدة وليست بسيطة لهذا لا يمكن الامساك بها عبر منهج واحد، وكل محاولة تستهدف عقلنة ظواهر مضطربة ومتغيرة باستمرار هي مجرد عبث، أضف إلى ذلك العلم والبحث العلمي ليس عقلانيا خالصا إذ توجد عناصر لاعقلانية تؤثر في مساره مثل الحدس والذاكرة والمخيلة والعاطفة والأسطورة، وهذا هو سبب دفاع فيرابند عن النظريات النقدية أو ضد العلم، كما حدث مع غاليلي الذي دافع عن رؤية كوبرنيكوس ضد النظرية الأرسطية، ويؤكد فيرابند أن الأفكار الجديدة عادة ما يتم رفضها باسم العقلانية لهذا يتم اللجوء إلى اللاعقلانية لفرضها مثل (الدعاية، العواطف) (paul, 1979. 116)

إن رفض فيرابند وحدة المنهج القائمة على العقلانية وصرامة القواعد لا يعني أنه دوغمائي أو يحاول التأسيس لمنهج بديل وإنما هو يؤمن بأن كل المناهج مقبولة وتتمتع بالصلاحية، يقول:"ليست لدى نية في استبدال مجموعة قواعد عامة بأخرى، بل غايتي هو اقناع القارئ، بأن كل الميتودولوجيات حتى أكثرها وضوحا وبداهة لها حدودها"(paul, 1979. 30) ويمكن في نظره التعرض لبعض المبادئ التي تعتبر أساسية ونقدها من الداخل كما حدث لمبدأ الهوية وعدم التناقض عند أرسطو حيث تمكن كل من دافيد هيوم وهيغل من اختراق هذه المبادئ، كذلك مبادئ العلم الكلاسيكي (الحتمية، السببية) تعرضت للنقد وتم تجاوزها من قبل هايزنبرغ.

إذن فيرابند يدعو إلى تأسيس فكرة التعددية المنهجية كسبيل منطقي لتقدم العقل الفلسفي والعلمي في أبحاثهما، أما الإيمان بفكرة وحدة المنهج والحقيقة والرؤية فكانت من بين أسباب تعطيل العقل والحد من حرية الفكر، لذلك قد تصلح في رأيه:"للكنيسة والضعفاء والراغبين في اتباع أحد المستبدين أو الطغاة، في حين تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والرأي الذي يشجع على التنوع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية"(paul, 1979. 40) وفيرابند يؤمن بتنوع المناهج وتعدد الآراء واختلافها وحتى تلك النظريات والأطروحات التي تم نبذها في الماضي هي ضرورية لنا اليوم في عملية توسيع مجالات أبحاثنا، فهو يؤسس لفلسفة الاختلاف كأفق معرفي، ورؤية فيرابند قد تقترب من رؤية "توماس كون" و"غاستون باشلار"، لأن توماس كون رفض القول بوجود قواعد صارمة خارج البحث يمكن أن توجه العقل في مسيرته، على اعتبار أنَّ كل القواعد هي موضع نقد وفحص مستمر من قبل العقل نفسه، كما رفض ونقد باشلار الرأي الذي يؤمن بوحدة المنهج، وكل خطاب حول المنهج ما هو إلا خطاب مرتبط بسياقات البحث ولا يمكن أن يكون خطابا عاما أو نهائيا، لأن العقل يتطور في التاريخ(Blanché, 1972. 19)

يرى فيرابند بأن سؤال المنهج هو سؤال زائف في الأصل والبحث فيه مضيعة للوقت، لهذا أراد تحرير العقل الفلسفي والعلمي من كل العراقيل والقيود التي كبلته بها الميتودولوجيا، لأن العلم في نظره ليس مجرد قوانين رياضية وإنما هو فعل إنساني وهو حصيلة كل القوى عقلانية وغير عقلانية، وما المنهج والعقلانية إلا مظهر من تلك الروح الإنسانية، وقد آمن فيرباند بالعقل المنفتح على الانتظام واللانظام وعلى التناقض وعلى الأساطير والمخيلة، فهو عقل بإمكانه الدخول في مناقشات حتى مع أضداده ونقائضه، والتعددية المنهجية تقوم على فكرة النسبية وهي ضد كل ما هو دوغمائي وما هو عقلاني وما هو حقيقي كلي، ويحاول فيرابند الانتقال من مستوى العقل الفلسفي والعلمي إلى مستوى التفاوت بين الأفراد والثقافات كحقيقة طبيعية (paul, 1979. 100)

نلمس حضور الفلسفة اليونانية وخاصة الرؤية السفسطائية ومقولاتها في فلسفة فيرابند، أين نجد بروتاغوراس يقول"الإنسان مقياس كل شيء"، لهذا النسبية تعني الاختلاف والتعدد والتنوع في كل شيء، في الثقافات والاعتقادات والرؤى وحتى المناهج، ولكن فيرابند مدرك أن النزعة النسبية ستتعرض للنقد من قبل الفلاسفة العقلانيين والعلمانيين لأنها تهدد مقولاتهم واعتقاداتهم وتصوراتهم، ويشبه العقلانيين الذين يدافعون عن تصوراتهم وأسسهم بقبيلة يدافع أفر ادها عن قوانينها وعاداتها، والفرق بينهما أن العقلانيين لا يدركون ولا يعرفون عما يدافعون في حين أفراد القبيلة يعرفون. ويقدم لنا فيرابند بعض الوقائع على تحول الدوغمائية وانحرافها يقول:"لقد بشرت المسيحية بحب الجنس البشري واحرقت وقتلت، وبشرت الثورة الفرنسية بالعقل والفضيلة، وانتهت بمحيط من الدماء، وتأسست الولايات المتحدة الأمريكية على مبادئ الحرية والسعي إلى إسعاد الجميع، ومع ذلك فقد مارست العبودية والقمع والاكراه"(فيرباند، 2009 :97)

وينتهي فيرابند إلى ضرورة تأسيس مفهوم المنهج على مبدأ التعدد والاختلاف كمبادئ طبيعية، أما فكرة وحدة المنهج فتتعارض والطبيعة كما أنها تحول دون تقدم العقل الفلسفي والعلمي في التاريخ، وعليه سؤال إمكانية التأسيس لمنهج واحد تظل فكرة توباوية لا تلتقي وطبيعة التفكير الفلسفي.

5- الخاتمة:

بعد تطرقنا لسؤال المنهج في الفلسفة ومساراتها من خلال بعض الأطروحات والمواقف يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- سؤال المنهج سؤال قديم يتجدد باستمرار كلما اصطدم الفلاسفة بعراقيل ابستيمولوجية في مقاربة موضوعات لها صلة بالعلم، لأن المنهج العلمي يظل بمثابة البراديغم لكل رؤية فلسفية تسعى إلى معرفة موضوعية تتمتع بدرجة من اليقين أو القبول.

- إن تعدد المناهج في الفلسفة ما هو إلا تعبير عن طبيعة الفكر الفلسفي والموضوعات التي يشتغل بها، وتبقى الفلسفة وجهات نظر مؤسسة على تجارب شخصية رغم ما في تلك الرؤية من ابعاد إنسانية كونية.

- عرفت الفلسفة تحولات كبرى فمن محاولة التأسيس لمنهج واحد على يد ديكارت وكانط وهوسرل إلى التفكير في مناهج متعددة إلى فكرة المناهج المتساندة مع ريكور(الهيرمينوطيقا) والمنهج المركب مع موران إلى التفكير ضد المنهج مع فيرابند، وكل المحاولات ما هي إلا تعبير عن طبيعة التفكير الفلسفي المؤسس على التعدد والاختلاف والتنوع.

- ماهية الفلسفة هي الاختلاف والتعدد وكل محاولة لتوحيد المنهج ما هي إلاّ تنكر لماهية الفلسفة او تفكير من خارج الفلسفة.

- إن حياة الفلسفة بتواصلها مع باقي العلوم والانفتاح على مختلف المناهج وانكماشها في توحيد المنهج أو مقارنتها بالعلم.

- قائمة المراجع:

أفلاطون. (1968). الجمهورية. فؤاد زكريا، المترجمون، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

آلان تورين. (1977). نقد الحداثة. ترجمة أنور مغيث، المترجمون، القاهرة، لمجلس الأعلى للثقافة.

إميل شارل، (1878). بول رويال. باريس.

برتراند راسل. (1983). حكمة الغرب. (فؤاد زكريا، المترجمون) ج2.

بيكون، ف .(2017) .الارغانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة .مؤسسة هنداوي سي آي سي،.

الجابري،م .ع .(2002) مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي .بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

جعفر، ع .ا .(1988) .مقالات الفكر الفلسفي المعاصر .الاسكندرية، دار المعارف الجامعية.

ديكارت رونيه، (2001). قواعد لتوجيه الفكر، القاعدة الرابعة. ترجمة سفيان سعد لله، تونس، دار سراس للنشر.

ديكارت، ر .(1982) .تأملات ميتافيزيقية،في الفلسفة الأولى) .ط1، بيروت، منشورات عويدات.

رونيه ديكارت. (2007). مقال الطريقة. ترجمة جميل صليبا، إشراف علي الكنز، تقديم عمر مهيبل، المترجمون، الجزائر، موفم للنشر.

زيدان، م .(1974) .مناهج البحث الفلسفي .لبنان، دار الأحد.

السبحاني، ج .(1996) .نظرية المعرفة .مكتبة التوحيد.

طه عبد الرحمان. (1988). اللسانيات والمنطق والفلسفة. المغرب، مجلة دراسات أدبية وإنسانية.

عبد الرحمان بدوي. (1977). مناهج البحث العلمي. الكويت، وكالة المطبوعات.

فضل الله، م .ف .(1983) .فلسفة ديكارت ومنهجه، نظرة تحليلية ونقدية .بيروت :دار الطليعة.

فيرباند، ب .(2009) .العلم في مجتمع حر) .ت .و .صادق، المجلس الأعلى.

كارل ياسبرس. (2007). تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية. بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر.

كامل، ف .الموسوعة الفلسفية المختصرة .بيروت2002، دار القلم.

محمد مهران. (1977). فلسفة برتراند راسل.. مصر، دار المعارف.

موران، إ .(2012) .المنهج، الأفكار : مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها،ج4، ش .ناضر بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

موران، إ .(2004) .الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، .ت .أ .الجوجي، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

المؤلفين، م .م .(1998) .بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية .ط1، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

يافوت، س .(1989) .العقلانية المعاصرة بين النقد والحقيقة،) .ط2، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر.

Bernard, C. (1865). introduction a l'étude de la médecine expérimentale. paris, Bailliere.

Blanché, R. (1972). L'épistémologie, que sais –je ؟no. paris: Presses universitaires de France.

Dagobert., R. (1996). Dictionary of philosophy. paris, Ed..Item.Methodology.by.Creennwood.A.S.

Descartes. (1996). Discours de la méthode. "La Pléiade", éd, Gallimard.

GILSON., E. (1944). La philosophie au Moyen Age, des origines patristiques à la fin du XIVe siècle. paris, Deuxième édition, revue et augmentée.

Henri, A. (i1970). , la philosophie Allemand. paris, éd SECHERS.

Husserl. (1967). ideas General introduction to pure phenomenology. translated by W, R, Boyce Gibson, London, George Allen and Unwin, .

Jaspers. (1966). Initiation à la méthode philosophique. paris.

Jaspers, K. (1963). Les Grands philosophes . paris.

j-Glaude, P. (1987). ou va la philosophie, et d ou vient –elle ? les édiditions , de la Balconnière, Neuchâtel, Suiss.

Morin, E. (1999). Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur. ,Paris, Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO).

Morin, E. (1986). La méthode, La Connaissance de la connaissance . paris, éditions du Seuil.

paul, F. (1979). Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance. paris,Le Seuil.

Popper, K. (1965). Conjectures and Réfutations the Growth of scientific Knowledge Harper touchbooks Newyok and evanston .

Popper, K. (1974). la logique de la Découverte scientifique. traduit de Langlais par n Thyssen et Philippe Devaux avec une préface de Jaques Monod Payot. pares.